مَقَامَاتُ

أهْلِ اليَقِين

عِنْدَ الشَّيْخ الإمامِ

عَبْدِ العَزِيزِ المَهْدَوِيِّ رضي الله عنه

(ت٦٢١هـ)

جمعها

نزار حمَّادي

دار الإمام ابن عرفة

تونس

مَقَامَاتُ

أهْلِ اليَقِين

عِنْدَ الشَّيْخ الإمامِ

عَبْدِ العَزِيزِ المَهْدَوِيِّ رضي الله عنه

(ت٦٢١هـ)

جمعها

نزار حمّادي

دار الإمام ابن عرفة

تونس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نوَّرَ قُلُوبَ أوْلِيائِه بذِكْرِه، وأنْطَقَ ألْسِنَتهُمْ بشُكْرِه، وعمَّرَ جوارِحَهُم بٱمْتِثالِ أمْرِه، فَهُمْ فِي رِيَاضِ الأُنْسِ يَرْتَعُون، وإِلَى أوْكارَ المَحَبَّة يَأْوُونَ، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾[يونس: ٥٨]، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾[يونس: ٦٢].

وَالصَّلَاةُ والسَّلامُ الأتَمَّانِ الأكْمَلانِ على سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنا مُحَمَّدٍ مَنَارِ السُّلُوكِ وَالهُدَى، ومَنْبعِ التَّأَسِّي وَالٱقْتِدَاء، الَّذِي ما تَرَكَ شَيْئًا يُقرِّبُ إلى اللهِ تعالى إلَّا ودَعَا إلَيْه، ولَا أدَبًا يَصْلحُ أنْ يكونَ العَبْدُ به مَعَ ربِّهِ إلَّا وَحَثَّ عَلَيْه.

وبعدُ، فَقَدْ صَحَّ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١).

---

(١) أبو داود (٣٦٤١) وابن ماجه (٢٢٣) وابن حبان في صحيحه (٨٨)

فَإِنَّهُ وَإِن كَانَ قَدْ فُقِدَ شَخْصُ النَّبِيِّ ﷺ وَرُؤْيَتُهُ فَمَا فُقِدَتْ شَرِيعَتُهُ وَسُنَنُهُ، بَلْ أَوْدَعَهَا اللهُ تَعَالَى خَزَائِنَ صُدُورِ العُلَمَاءِ الوَرَثَةِ الَّذِينَ لَوْ لَا هُمْ لَضَلَّ النَّاسُ، وَلَمْ يَبْقَ مَنْ يُرْشِدُهُمْ إِلَى مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ وَظَائِفِ التَّكْلِيفِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَة.

فَالعُلَمَاءُ الرَّبَّانِيُّونَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ المُشَرَّفَةِ هُمْ وَرَثَتهُ ﷺ، وَرِثُوا عَنْهُ الدَّلَالَةَ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَالدَّعْوَةَ إِلَيْهِ، وَأَعْظَمُ مَا دَعَا إِلَيْهِ نَبِيُّنَا ﷺ عِبَادَةُ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ فِعْلٍ وَتَرْكٍ يُؤْتَى بِهِ تَقَرُّبًا إِلَى اللهِ تَعَالَى لِمُجَرَّدِ أَمْرِهِ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ، وَيَدْخُلُ فِيهَا جَمِيعُ أَعْمَالِ القُلُوبِ وَجَمِيعُ أَعْمَالِ الجَوَارِحِ، إِلَّا أَنَّ لِلأُولَى فَضْلًا عَلَى الثَّانِيَةِ لِشَوَاهِدَ كَثِيرَةٍ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

فَمِنَ الكِتَابِ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٣]، قَالَ الشَّيْخُ أَبُو السُّعُود: ذَكَر أَوَّلاً مِنْ أَعْمَالِهِمُ الحَسَنَةِ **أَعْمَالَ القُلُوبِ** مِنَ الخَشْيَةِ وَالإِخْلَاصِ وَالتَّوَكُّلِ، ثُمَّ عَقَّبَ بِأَعْمَالِ الجَوَارِحِ مِنَ

الصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ[1].

وَقَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾[الأعراف: ٢٠٦]، قَالَ الشَّيْخُ نظامُ الدين النيسابوري: في هذا الترتيبِ دَلِيلٌ على أنَّ الأصل في الطاعةِ والعبودية **أعْمالُ القُلُوبِ**، وتَتفرّعُ علَيْهِ أعمالُ الجَوارح[2].

وَبِالجُمْلَةِ فَلَوْ لَمْ يَرِدْ فِي الكِتَابِ العَزِيزِ إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾﴾[الزمر: ١٠] لكَانَ كافِيًا فِي الدَّلالةِ عَلَى فَضْلِ أَعْمَالِ القُلُوبِ.

وَمِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»[3].

قال العَلَّامةُ البَيْضَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لمَّا كانَ التَّوَرُّع والتَّهَتُّكُ مِمَّا يَتْبَعُ ميَلانَ القَلْبِ إلى الصَّلاح أَوِ الفُجُورِ نَبَّهَ ﷺ على ذلك

(١) إرشاد العقل السلمين (ج٤/ص٤)

(٢) غرائب القرآن (ج٣/ص٣٦٩)

(٣) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)

لِيُقبِلَ المُكَلَّفُ علَيْهِ فيُصْلِحَهُ ويَمْنَعهُ عنِ الانْهِماك في الشَّهَواتِ والإسراع إلى تحصيل المشتَهيَاتِ حَتَّى لا يبادِرَ إلى الشُّبُهات ولا يَسْتَعْمِلَ جوارِحَهُ في اقْتِرَافِ المُحَرَّمَاتِ[1].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[2].

قال الإمامُ أبو الحَسَن ابنُ بَطَّالٍ (ت٤٤٩هـ) رحمه الله: دَلَّ هذا الحديثُ أنَّ مَنْ أحَبَّ عَبْدًا في اللهِ فإنَّ اللهَ جامِعٌ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ في جنَّتِه، وأنَّ مدْخَلَهُ مَدْخَلُهُ وإن قَصُرَ عنَ عَمَلِه، وهذا معنى قوله: «وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ» يَعْنِي في العمَلِ والمَنْزِلة، وبيان هذا المعنى والله أعلم أنَّهُ لمَّا كان المُحِبُّ للصَّالِحِين إِنَّمَا أحَبَّهُمْ مِن أجْلِ طاعَتِهِمْ لِلَّهِ، **وكانَتِ المَحَبَّةُ عمَلًا مِنْ أَعْمَالِ القلوب واعتقادًا لها** أَثَابَ اللهُ مُعْتِقد ذلِكَ ثوابَ الصَّالِحين؛ إذِ النِّيَّةُ هِي الأَصْلُ، والعمَلُ تابِعٌ لهَا، واللهُ يُؤْتِي فَضْلَهُ مَنْ يشاء[3].

---

(١) تحفة الأبرار (ج٢/ص٢١٢)

(٢) البخاري (٦١٦٨) ومسلم (٢٦٤٠)

(٣) شرح صحيح البخاري (ج٤/ص٢٠٣٤)

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**» وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ[١].

قال الشيخ أبو العباس القُرْطُبيُّ (ت٦٥٦هـ) رَحِمَهُ اللهُ: وَفِيه أنَّ الاعتناء بإصْلَاح القَلْبِ وبصِفَاتِه مُقَدَّمٌ على عَمَل الجوَارِح؛ لأنَّ عمَلَ القَلْبِ هو المُصَحِّحُ للأعْمَالِ الشَّرْعِيَّة؛ إِذْ لا يَصِحُّ عمَلٌ شَرْعِيٌّ إلَّا مِنْ مُؤْمِن عالِمٍ بمَنْ كَلَّفَه، مُخْلِصٍ له فيمَا يَعْمَلُه، ثُمَّ لا يَكْمُلُ إلا بمُراقَبَته تعالَى فيهِ، المُعَبَّر عَنْهَا بالإحِسْان، وحيْثُ كانَ عمَلُ القلْبِ مُصحِّحًا للعَمَلِ الظَّاهِر، وعمَلُ القلْبِ غَيْبٌ عنَّا، فلا يُقْطَعُ لذي عمَلٍ صالِحٍ بالخَيْر، فلعَلَّ اللهَ تعالى يَعْلَمُ مِنْ قَلْبِهِ وَصْفاً مَذْمُوماً لا يَصِحُّ معَهُ ذلك العَمَلُ، ولَا لذِي مَعْصِيَةٍ بالشَّرِّ فلَعَلَّهُ سبحانه يَعْلَمُ مِنْ قَلْبه وَصْفاً مَحْمُوداً يَغْفِرُ لَهُ بسَبَبِه، والأعْمَالُ أمَاراتٌ ظَنِّيَّةٌ، لا أدِلَّةٌ قَطْعِيَّة، ويتَرَتَّبُ على ذلِكَ عدَمُ الغُلُوِّ فِي تَعْظِيم مَنْ رَأَيْنَا عليْهِ أَفْعَالاً صالِحَةً، وعدَمُ الاحْتِقارِ لِمُسْلِمٍ رَأَيْنَا علَيْهِ أفْعَالاً سَيِّئَةً[٢].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «**أَنَّ رَجُلًا كَانَ قَبْلَكُمْ،**

---

(١) مسلم (٥٢٦٤)

(٢) المفهم (ج٦/ص٥٣٩)

رَغَسَهُ[1] اللَّهُ مَالًا، فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حُضِرَ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ»[2].

وَبِفَضْلِ وشَرَفِ أعْمالِ القُلوب شَهِدَ العُلَماءُ سَلَفًا وَخلفًا، فمن ذلك قوْلُ الإمَامِ أبي الوليد ابن رشد الجد (ت٥٢٠هـ): **أعمالُ القلوبِ** أشرفُ من أعمال الجوارح؛ ألا ترى أنه لا يثابُ أَحدٌ على عَمَلٍ مِنْ أعْمَالِ الجوارحِ ـ من الوضوء والصلاة والصِّيامِ والحجِّ وسائر الطاعاتِ ـ إلَّا مع مشاركةِ القلوبِ لها بإخلاصِ النية لله عَزَّ وَجَلَّ في فعلها[3].

وقال الإمام عزُّ الدين بن عبد السلام (ت٦٠٦هـ): اعْلَم أَن القُلُوب أَوَّلُ مَحَلِّ التَّكاليفِ، **وَأَنَّ أعمالَ الأَبدَان مَوْقُوفَةٌ على أَعمالِ القُلُوب**، وَأَنَّ الأَعْمَال إِنَّمَا يَقع ابْتِدَاؤُهَا من القُلُوب ثمَّ

(١) أي: أعطاهُ.

(٢) البخاري (٣٤٧٨) ومسلم (٢٧٥٧)

(٣) البيان والتحصيل (ج١٧/ص٥٨١)

تَظْهرُ على الجَوَارِحِ[١].

وَمِنْ كلام العلماء في هذا المقامِ قولُهم: «الذَّرَّةُ مِنْ أَعْمَالِ القُلُوبِ أَفْضَلُ مِنْ أَمْثَالِ الجِبَالِ مِنْ أَعْمَالِ الجَوَارِحِ».

وَقولُهم: أَعْمَالُ الجَوَارِحِ إِنَّمَا تُرَادُ لِأَجْلِ تَحْصِيلِ أَعْمَالِ القُلُوبِ[٢].

وقولُهم: الأعْمالُ الصَّالِحَةُ لا تنفع في الآخرة إلا بحصول أعْمال القلب[٣].

وقولهم: أَعْمَالُ القُلُوبِ خَفِيَّةٌ، لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا مَلَكٌ فَيَكْتُبُهَا، وَلا شَيْطَانٌ فَيُفْسِدَهَا، فَالإِخْلَاصُ فِيهَا مُحَقَّقٌ.

وبالجملة فالدَّرجاتُ عند الله على حسَبِ المَقاماتِ، والمقامَاتُ على حسَبِ الأعْمَالِ، وأعْمَالُ القلوب هي التي تُقَرِّبُ إلى حَضْرَةِ علام الغيوب، فَبِها يقع القُرب، وبالخُلُوِّ عنها يقَعُ البُعد، وعليهَا دَلَّتِ الأولياءُ بعدَ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[٤].

---

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله (ص١٣)

(٢) تفسير السراج المنير للشربيني (ج١/ص٦٥٤)

(٣) تفسير السراج المنير للشربيني (ج٢/ص٥٢)

(٤) البحر المديد (ج٢/ص١٧٣)

ومن أولياء الله تعالى الذين وَلَّاهُم الله ﷻ رتبةَ الدلالة على أعمال القلوبِ الشيخ الإمام عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه، وقد جمعنا بهذه المناسبة كلماتٍ وجيزةً مأثورةً عنه متعلقةً ببعض أمهاتِ طاعَاتِ القُلوب وهي التوبَةُ والزُّهْد والصَّبْرُ والخَوْفُ والرجاء والشكر والتوكل والمحبة والرضا، سائلين الله تعالى أن يوفقنا لفَهْمِها والتَّحَلِّي بها، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

ترجمة مختصر للشيخ عبد العزيز المهدوي رضي الله عنه

قال الإمام زروق (ت٨٩٩هـ) في كنَّاشتِه في التعريف بمشايخ التربية وأعلامهم: ومنهم الشيخ أبُو مُحَمَّد عبدُ العزيز المهدوي، هو ابْنُ أبِي بَكْر القُرَشي، أَحَدُ تلاميذ الشيخ أَبِي مَدْيَن، وإِلَيْهِ ينتَهِي.

وكانَ أُمِّيًّا ثم قرأَ القُرْآنَ إلَى ﴿قَدْ سَمِعَ﴾[المجادلة: ١].

وكان على بيِّنةٍ من رَبِّه، ذا إنْصَافٍ جمِيل، وعِلْمٍ جليلٍ، وحالٍ فضِيلٍ.

أَثْنَى علَيْهِ الأئِمَّةُ، وأَخذَ عَنْهُ الأكابِرُ.

وَكَانَتْ له في البدايةِ مُرَقَّعَةٌ يقال إنَّ فيها تِسْعِين رطلًا، ربما

دخل البَحْرَ بها ثم لا يزال يُصَلِّي بها حتى تَجِفَّ، عقوبةً لِنَفْسِه إِذَا قَصَّرَتْ أَوْ فتَرَت.

قلتُ: ومن هنا كانَ شيْخُ المشايخ أبُو مَدْيَن يقول: «عبد العزيز سَبُعُ النُّفوس». يعني في تأديبه نَفْسَهُ وتَرْبِيَتِه غَيْرَه(١).

قال الشيخ زروق: ودخل الخلوه فواصل أربعين يَوْمًا فقالَ إمامُ المهديةِ: إنْ ماتَ لا أُصَلِّي عليْه لأَنَّهُ قتَلَ نَفْسَه، فقال الشيْخُ: هو يموت وأَنَا أُصَلِّي عليه، فكان كما قال.

توفي سنه إحدى وعشرين وستمائة (٦٢١هـ) ودفن بمرسى عبدون(٢).

قلتُ: ومن مراسلات الشيخ أبي مدين للشيخ عبد العزيز رضي الله عنهما قوله: «أما بعد، فإنّ مَنِ اتقى اللهَ وقَاه، ومَن توَكَّل عليه حَقَّ التَّوَكُّل كفَاه، ومن استغنى به نجَّاه، ومن شكَرَهُ آواه، ومَن أَقْرَضَه جزَاه، فاجعل التقوى عمادَ قلْبِك، وجَلاء بَصَرِك، فإنَّه لا عمل لمِنْ لا نِيَّة له، ولا أجْرَ لمن لا خشْيَةَ له، وَقَد أَصْبَحْت

---

(١) سبك المقال (ص٦٢)

(٢) كناشة الشيخ زروق (ق٣٠/ب) وهو ملخص من سبك المقال (ص٥٩)

أَمِيرًا تقُول فيُسْمَع منْك، وتأْمُر فيَنْفُذ أمْرُك، فيا لها نعمةٌ، واحْتَرِز مِن النِّعمةِ أشَدَّ من احترازِك من المُصِيبة، فاللهُ تعالى يسَدِّدُك ولا يُبْعِدك، ويحفظك ولا يُوحِشُك، إنّه بذلك جدير، وعلى ما يشاء قدير، وهو اللطيف الخبير، فإنْ قطعتَ كتابك عني فالله سبحانه لا يقطع شخْصَك مني، لا خيالا ولا نوما، ولقد ضاق صدري حين أتت المراكب ولم نرَ لك فيها كتابا، فرأَيْتُك في النوم وأنْتَ تَقُول لي: إنْ كُنْتَ تريدُ بسَلامك عليَّ الدنيا فلا تُسَلِّم علَيَّ ولا نُسَلِّمُ عليكَ، وإنْ كُنْتَ تُريد الآخرةَ فسلامُك يَبْلُغني وإنْ لَمْ تُكَاتِبْني، وسَلامِي يَبْلُغك وإِنْ لَمْ أُكاتِبْكَ، فزال عن قلبي كلُّ ما كنت أَجِدُه مِن القَبْضِ، وما تَوَحَّشْتُك إلَّا لأنِّي رأيتك على هيئةٍ تزيدُني نشاطًا، فاللهُ سبحانه لا يَقْطَعُك عَنِّي يقظةً ولا نومًا، والسلامُ[1].

وذكرهُ تلميذهُ الشَّيْخُ مُحْيِي الدين ابنُ العربي الحاتمي (٥٦٠ ـ ٦٣٨هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة وجّهها إلى ابن عمِّهِ وقَدْ شرحَ له فيها قول الشيخ عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**عُلَمَاءُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَنْبِيَاءُ**

(١) سبك المقال (ص٦٣)

سَائِرِ الأُمَمِ» فقال: هو الشيخ الكبير، والعِلْقُ الخطيرُ، وهو مِمَّنِ اقتفى آثار النبيِّ ﷺ، وقدَح زِنْدَه واستضاءَ بنورهِ واقْتَدَى فاهتدى، فحصل له الشرف الشامخُ والمجْدُ الباذخُ؛ إذ لا يصحُّ شرفُ المخلوق على الكمالِ إلا بطاعة اللهِ تعالى واجتناب محارمِهِ[1].

وقال أيضا: شاهدتُ من أصحابهِ أمْرًا غريبًا ما رأيتُهُ قط إلا عِنْدَه، وما سمعتُ به إلَّا حكايةً عن السَّلف، وهو مما يدلُّ على متابعَتِه للسُّنة، وذلك أنه قد فاتَتْنِي صلاةُ العَصْر في الجماعة، فدخلتُ منزلَهُ فصلَّيتُ فَذًّا، فلَمَّا أكملتُ صلاتي ما بَقِيَ أحَدٌ من طلبَتِه إلا عزَّاني وصافَحني ودعَا لي بجَبْر التَّخَلّفِ، وقَوَّى صبْرِي، فلم أُمَيِّز واللهِ نَفْسِي وظَنَنْتُ أنِّي قد خرجتُ عن زماني، وبَقِيتُ متعجّبًا أن يكون في مثل هذا الزمانِ ـ على ركاكة أهله وخساسَةِ حالِه ـ مثْلَ هؤلاء، وتذكرتُ قول حاتم الأصمِّ حيث قال: فاتتني الجماعَةُ فعزَّاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي وَلَدٌ لعزاني أكثر من عشرة آلاف، فحمدتُ اللهَ تعالى

---

(١) الرسالة ضمن مقدمة مشاهد الأسرار (ص٤٧)

أنني شاهدتُ في زماننا ـ على خسّته ـ قومًا هم على ما كان عليه السلف، وعملوا على قوله ﷺ: «**مَنْ فَاتَتْهُ العَصْرُ فكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ**»[1]. وذلك فيه العزاء، فأولى في فوتِ ثوابٍ لا يفنى[2].

فَضْلُ أَعْمَالِ القُلُوبِ عِنْدَ الشَّيْخِ عَبْدِ العَزِيزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الإِيمَانُ مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ الَّتِي يُشْكَرُ اللهُ عَلَيْهَا، وَبَقَاؤُهُ نِعْمَةٌ ثَانِيَةٌ يَجِبُ الشُّكْرُ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ مُعَرَّضٌ لِلزَّوَالِ مَعَ الأَنْفَاسِ، فَإِذَا مَضَى وَقْتٌ وَهُوَ ثَابِتٌ فَذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ[3].

وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اعْلَمْ أَنَّ المُعَامَلَاتِ وَالقُرُبَاتِ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَلَى قِسْمَيْنِ: قَلْبِيَّةٌ، وَبَدَنِيَّةٌ، فَأَعْلَى الأَعْمَالِ البَدَنِيَّةِ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَعْلَى الأَعْمَالِ القَلْبِيَّةِ التَّوْحِيدُ.

وَلَا يَصِحُّ أَحَدُهُمَا دُونَ الثَّانِي، إِلَّا أَنَّ الأَوَّلَ إِمَامٌ لِلثَّانِي، فَكَمَا ارْتَبَطَتْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» بِـ«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»[4]، كَذَلِكَ

---

(١) البخاري (٥٥٢) ومسلم (٦٢٦) واللفظُ له.

(٢) الرسالة ضمن مقدمة مشاهد الأسرار (ص٤٩)

(٣) محجة القاصدين (ص٢١٩)

(٤) يعني أن الإيمانَ بنبوة نبيِّنا محمد ﷺ متوقِّفٌ على مَعْرِفَةِ اللهِ تعالى.

ارْتَبَطَتِ الأَعْمَالُ القَلْبِيَّةُ بِالأَعْمَالِ البَدَنِيَّةِ[١].

وَيَتَّجِهُ أَنْ يَصِحَّ الإيمانُ بِـ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» مُجَرَّدًا[٢]، وَلَا يَتَّجِهُ أَنْ يَصِحَّ الإِيمَانُ بِـ«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» دُونَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

كَذَلِكَ يَتَّجِهُ أَنْ تَصِحَّ الأَعْمَالُ القَلْبِيَّةُ دُونَ الأَعْمَالِ البَدَنِيَّةِ[٣]، دَلِيلُهُ حَدِيثُ الرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا[٤] قَطُّ إِلَّا التَّوْحِيدُ فَانْتَفَعَ بِهِ، وَلَا يَصِحُّ العَمَلُ البَدَنِيُّ دُونَ العَمَلِ القَلْبِيِّ، وَلَوْ كَانَ العَمَلُ البَدَنِيُّ بِمُجَرَّدِهِ نَافِعًا لَكَانَ المُنَافِقُ يَنْجُو بِعَمَلِهِ.

وَقالَ رضي الله عنه: إِنَّ لِلْعبْدِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَا بُدَّ مِنَ العِبَادَةِ بِهِمَا لِرَبِّهِ، فَأَمَّا ظَاهِرُهُ فَلَا بُدَّ مِنْ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، فَيَكُونُ مُرَاقِبًا

---

(١) فالأعمال القلبية هي الباعثة على الأعمال البدنية، كما أن هذه لا تتهيأُ للقبول وقد لا تصحُّ إلا بالأعمال القلبية كما في النّياتِ.

(٢) لا سيما عند القائلين بأنه يجبُ على أهل الفترةِ توحيدُ الله وإن لَمْ يُرْسَلْ إليهم خصوصُ رسولٍ يدعوهم لذلك. وأما بعد بعثة النبيّ لا سيما خاتمهم ﷺ فالأمر كما قال الشيخ عبد العزيز: لا يُؤْمَنُ بِاللهِ حَتَّى يُؤْمَنَ بِهِ ﷺ. (محجة القاصدين ص٤٢٢)

(٣) يعني أن الشرع قد جاء بأن الإثابَةَ على الأعْمَالِ القَلْبِيَّةِ قَدْ تثبتُ عند عدَمِ الأعْمَالِ البَدَنِيَّة، كمن آمن بالله تعالى في آخر حياتهِ ولم يتسع له الوقتُ للقيام بالطاعات البدنية.

(٤) حديث الصحيحين: البخاري (٣٤٧٨) ومسلم (٢٧٥٧)

لِحَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ، وَأَمَّا بَاطِنُهُ فَإِنَّهُ مَنْظَرُ الحَقِّ، فَيُطَهِّرُهُ مِنَ الخَلْقِ وَيُقَدِّسُهُ، وَيُعَمِّرُهُ بِذِكْرِهِ تَعَالَى حَتَّى يَجِدَ الحَلَاوَةَ فَيَنْسَى بِذِكْرِ الحَقِّ ذِكْرَ الخَلْقِ[1].

وَقَالَ رضي الله عنه: اعْلَمْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إِحْكَامِ الظَّاهِرِ، وَهُوَ المَدْخَلُ وَالقِشْرُ الَّذِي يُتَوَصَّلُ مِنْهُ لِلبِّ، وَلَيْسَ المُرادُ هُوَ بِنَفْسِهِ، إِنَّمَا المُرَادُ المَوَارِيثُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾[الأنعام: ٩٩] [2].

وَقَالَ رضي الله عنه: كُلُّ عَمَلٍ لَا تَنْتُجُ عَنْهُ مَوَارِيثُ فَعُقُوبَتُهُ أَنْ يَبْقَى عَامِلُهُ يَرْمُقُهُ وَيَعُدُّهُ كَالحَاكِي عَنْ شَبَابِهِ وَأَفْعَالِهِ الحَمِيدَةِ فِيمَا سَلَفَ مِنْ عُمُرِهِ، نَاسِيًا وَقْتَهُ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَهُوَ خَاتِمَةُ عُمُرِهِ وَناسِخٌ لِلْمَاضِي، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى فَرَاغِهِ وَنَقْصِ عَقْلِهِ وَفَسَادِ أَعْمَالِهِ[3].

---

(١) محجة القاصدين (ص١٦٨)

(٢) محجة القاصدين (ص٣٦٠)

(٣) محجة القاصدين (ص٣٨٧)

أَهَمِّيَّةُ العِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ للشَّيْخِ عَبْدِ العَزِيزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

قَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الفَقِيرُ إِذَا لَمْ يَحْفَظْ عَلَيْهِ فَرَائِضَهُ فِي مَوَاقِيتِهَا بِعَزِيمَةٍ فَهُوَ مَعْلُولٌ، وَلِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ[1].

وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الفَرَائِضُ رَأْسُ المَالِ، فَإِذَا ضُيِّعَتْ فَلَا رِبْحَ وَلَا رَأْسُ مَالٍ؛ لِأَنَّ النَّوَافِلَ تَكْمِيلٌ لِلْفَرَائِضِ فِي الخُشُوعِ وَالحُضُورِ، وَبِهَا يُرْتَفَعُ إِلَى عِلِّيِّينَ، فَإِذَا ضُيِّعَتْ هَذِهِ الفَرَائِضُ فَأَيُّ خَيْرٍ فِي هَذِهِ النَّوَافِلِ؟![2].

وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَفْضَلُ الأَعْمَالِ كُلِّهَا الصَّلَاةُ، فَإِنَّهَا عِمَادُ الدِّينِ وَكُلِّيَّتُهُ فِي التَّعَبُّدَاتِ، وَهِيَ أُسُّ الخَيْرَاتِ وَمَنْبَعُ البَرَكَاتِ، **بِشَرْطِ الحُضُورِ وَالخُشُوعِ فِيهَا**، وَقُرَّةُ العَيْنِ فِيهَا لَا تَكُونُ لِمُكَابِدٍ وَلَا لِمَنْ يُدَافِعُ الشَّيْطَانَ، وَإِنَّمَا هِيَ لِمَنِ اسْتَرَاحَ مِنَ المُجَاهَدَةِ وَالدَّفْعِ[3].

---

(١) محجة القاصدين (ص٢١٤)

(٢) محجة القاصدين (ص٢١٤)

(٣) محجة القاصدين (ص١٧٨)

بَابُ التَّوْبَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

وقال ﷻ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالفَلَاةِ**»(١).

وَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ كُلَّ مُفَتَّنٍ تَوَّابٍ**»(٢).

وقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ العَزِيزِ رضي الله عنه: أَعْظَمُ شُرُوطِ التَّوْبَةِ لِلْعَوَامِّ طَهَارَةُ القَلْبِ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مُحِبَّ الدُّنْيَا لَا تَكَادُ تَصْفُو لَهُ

---

(١) مسلم (٢٦٧٥) قال الإمام الخطابيُّ في أعلام الحديث: أفرحُ: معناه: أرْضَى بالتوبةِ وأقبلُ لها. وقال الحافظ في الفتح: إطلاقُ الفرح في حقِّ الله مجازٌ عن رِضاهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦٠٥) قال المناوي «المُفَتَّن» بفتح التاء مشدَّدَةً مَبْنِيًّا للمَفْعُول، أي: المُمْتَحَنِ بِالذَّنْبِ، «التَّوَّابُ» أي: الكَثِيرُ التَّوْبَةِ، أي: ٱلَّذِي يَتُوبُ ثُمَّ يَعُودُ ثُمَّ يَتُوبُ ثُمَّ يَعُودُ ثُمَّ يَتُوبُ وَهَكَذَا. قالَ الحَرَالِّي: «وهَذَا تَأْنِيسٌ لِقُلُوبِ المَجْرُوحِينَ مِنْ مُعَاوَدَةِ الذَّنْبِ بَعْدَ التَّوْبَةِ مِنْهُ». (فيض القدير ج٢/ص٢٨٩)

رَكْعَةٌ وَلَا سَجْدَةٌ، وَلَا ذِكْرٌ وَلَا فِكْرٌ؛ لِأَنَّ حُبَّ الدُّنْيَا قَدْ مَلَأَ قَلْبَهُ، فَلَا تَصِحُّ تَوْبَتُهُ لِأَنَّ التَّائِبَ حَبِيبُ اللهِ، وَهَذَا قَدْ أَحَبَّ الدُّنْيَا[1].

باب الزُّهْد

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[النساء: ٧٧].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبِعَهُ فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ**»[2].

وَقَالَ ﷺ: «**ٱزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَٱزْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ**»[3].

وَقَالَ ﷺ: «**لَيْسَ الزُّهْدُ بِتَحْرِيمِ الحَلَالِ وَلَا بِإِضَاعَةِ المَالِ، إِنَّمَا الزُّهْدُ أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِكَ**»[4].

وقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ العَزِيزِ رضي الله عنه: الزُّهْدُ فَرِيضَةٌ وَفَضِيلَةٌ وَقُرْبَةٌ:

ـ فَالفَرْضُ: الزُّهْدُ فِي الحَرَامِ، وَهُوَ مَا نَهَى عَنْهُ ظَاهِرُ العِلْمِ،

---

(١) محجة القاصدين (ص١٧٧)

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٤٠)

فَتَرْكُهُ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

ـ **وَالفَضِيلَةُ**: هُوَ الزُّهْدُ فِي الحَلَالِ عَلَى لِسَانِ العِلْمِ، وَهُوَ مَا أَبَاحَهُ الشَّرْعُ لِلْكِفَايَةِ كَالأَقْوَاتِ وَالمُدَّخَرَاتِ وَجَمْعِ الأَمْوَالِ مِنْ حِلِّهَا.

ـ **وَالقُرْبَةُ**: هُوَ الزُّهْدُ فِيمَا مَسَّتِ الحَاجَةُ إِلَيْهِ مِنَ القُوتِ وَمَا أَشْبَهَهُ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ؛ إِذْ لَا حَاجَةَ وَلَا ضَرُورَةَ عِنْدَ الخَوَاصِّ[1].

وَقَالَ رضي الله عنه: التَّارِكُ لِلدُّنْيَا بِبَدَنِهِ تَصَنُّعًا وَخَوْفًا عَلَى صِيتِهِ وَإِظْهَارًا لِنَفْسِهِ وَهُوَ رَامِقٌ لَهَا بِقَلْبِهِ مُتَعَرِّضٌ لَهَا بِلِسَانِ حَالِهِ نَاظِرٌ لِمَا فِي يَدِ غَيْرِهِ: آكِلٌ بِالدِّينِ وَالعِيَاذُ بِاللهِ، وَأَمَّا الرَّاغِبُ فِيهَا بِبَدَنِهِ وَهُوَ تَارِكٌ لَهَا بِقَلْبِهِ فَهُوَ الآخِذُ لَهَا سَتْرًا لِحَالِهِ، وَهُوَ فَارِغٌ مِنْ كَسْبِهِ طَاهِرٌ مِنْهَا، لَا يَفْرَحُ بِوُجُودِهَا، وَلَا يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِهَا وُثُوقًا بِمَا فِي يَدِ اللهِ تَعَالَى[2].

---

(١) محجة القاصدين (ص٢٩٢)

(٢) محجة القاصدين (ص٢٩٥)

باب الصبر

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ [الزمر: ١٠].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّبْرُ ضِيَاءٌ**»[1].

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَلَنْ تُعْطَوْا عطَاءً أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[2].

وقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ العَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ، وَفِيهِ مُكْتَسَبٌ، ومَوْهِبِيٌّ، والنَّاسُ فِيهِ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: سَالِكٌ، وَوَاصِلٌ، فالسَّالِكُ صاعِدٌ، والواصِلُ نازِلٌ:

[١] ـ **فالسَّالِكُ** يَصْبِرُ عَلَى البَلَاءِ وقَطْعِ المَلَاذِّ، ويَصْبِرُ عَلَى المَعاصِي وَكُلِّ مَا يَشْغَلُ قَلْبَهُ، وَيَصْبِرُ عَلَى نِيرَانِ المُجَاهَدَاتِ وَالرِّيَاضَاتِ فِي تَقْدِيسِ مَحَلِّهِ وَتَطْهِيرِهِ مِنَ السُّكُونِ لِلْأَغْيَارِ، فَهُوَ عَالِمٌ بِهَذَا الصَّبْرِ صَاعِدٌ بِالكَسْبِ مُسْتَعِينٌ باللَّهِ، وَهُوَ طَرِيقُ العُمَّالِ، ولَهُ أَجْرٌ بغَيْرِ حِسَابٍ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣)

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٠)

[٢] - **والمَقامُ الثَّانِي** هُو لِلْخُصوصِ، فَهُوَ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الخَلْقِ وَأَذَاهُمْ وَمَا يَجْرِي مِنْهُمْ حَتَّى يَرُدَّهُم إِلَى اللهِ تَعَالَى عَلَى وَصْفِ الشَّفَقةِ والرَّحْمَةِ والاسْتِغْناء عَنْهُمْ، لَا لِجَزَاءٍ وَلَا شُكُورٍ، بَلْ هُمْ آلَاتٌ وَدَالُّونَ عَلَى اللهِ وَدَاعُونَ إِلَيْهِ عَلَى الطَّهَارَةِ وَالصَّفَاءِ، مُصَرَّفُون بِالحَقِّ، مَقْطُوعُونَ عَنِ الخَلْقِ وَعَنْ مُلَاحَظَةِ البَشَرِيَّةِ والحَظِّ، بِلَا مُشارَكَةٍ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[النحل: ١٢٧]، وَقَالَ تَعَالَى: **﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾**[الأحقاف: ٣٥]، فَسَلَّاهُ بِذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِي لَقِيَ الأَنْبِياءَ عليهم السلام مِن أُمَمِهِمْ لَيْسَ مِمَّا يُوصَفُ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَرْحَمُ اللهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَر مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»[١]، فَخَلَّصَ اللهُ خَوَاصَّ عِبَادِهِ مِنْ صَبْرِهِمُ المُكْتَسَبِ إِلَى قَوْلِهِ: **﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾**[النحل: ١٢٧]، فَكَانَتِ السُّنَّةُ: «**بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ**[٢]»[٣].

---

(١) البخاري (٣١٥٠) ومسلم (١٠٦٢)

(٢) أبو داود (٢٦٣٢) والترمذي (٣٩٠١) و«أَحُولُ»: أتحرَّكُ. و«أَصُولُ»: أَحْمِلُ عَلَى العَدُوِّ. (مطالع الأنوار لابن قرقول، ج٢/ص٣٦٥)

(٣) محجة القاصدين (١٩٩)

باب الشُّكْر

قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

[إبراهيم: ٧].

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ: «**أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»(١).

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ العَزِيزِ رضي الله عنه: شُكْرُ النِّعَمِ بِشُهُودِ المِنَّةِ وَحِفْظِ الحُرْمَةِ، أَمَّا شُهُودُ المِنَّةِ فَهُوَ أَنْ يَرَى العَبْدُ عِنَايَةَ اللهِ بِهِ فِي الأَزَلِ أَنْ هَدَاهُ لِلْإِيمَانِ، وَأَمَّا حِفْظُ الحُرْمَةِ فَهُوَ أَنْ لَا يَعْصِيَ اللهَ بِنِعَمِهِ(٢).

وَقَالَ رضي الله عنه: الشُّكْرُ: هُوَ غَضُّ البَصَرِ عَنِ النِّعْمَةِ بِشُهُودِ المُنْعِمِ، فَكُلُّ مَنْ لَمْ يُشَاهِدِ المُنْعِمَ فِي النِّعْمَةِ كَانَتِ النِّعْمَةُ فِي حَقِّهِ اسْتِدْرَاجًا؛ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يَسْكُنَ إِلَيْهَا، فَإِذَا نُزِعَتْ عَنْهُ لَزِمَهُ أَنْ يَتَغَيَّرَ عَلَيْهَا(٣).

وَقَالَ رضي الله عنه: اعْلَمْ أَنَّ النِّعَمَ مُوَافِقَةٌ لِلنُّفُوسِ وَالشَّهَوَاتِ وَالطِّبَاعِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧١) ومسلم (٢٨١٩)

(٢) محجة القاصدين (ص٢٧١)

(٣) محجة القاصدين (ص٢٧٣)

مِنَ المَطَاعِمِ وَالمَلَابِسِ وَالمَرَاكِبِ وَالأَهْلِ وَالوَلَدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهِيَ كُلُّهَا حُظُوظٌ، وَيُخَافُ عَلَى مَنْ أُخِذَ عَنْهُ مَا وَافَق طَبْعَهُ أَنْ يَتَغَيَّرَ عِنْدَ زَوَالِهِ، وَهَذَا مَقَامٌ مَدْخُولٌ عِنْدَ أَرْبَابِ الطَّرِيقِ، فَلَا يَصِحُّ مَقَامُ الشُّكْرِ إِلَّا بَعْدَ إِمْكَانِ زَوَالِ النِّعَمِ وَبَقَائِهِ عَلَى حَالِهِ.

وَأَمَّا الشَّكُورُ فَهُوَ الَّذِي لَا يَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الأَعْرَاضِ الفَانِيَةِ الَّتِي لَا بَقَاءَ لَهَا، وَإِنَّمَا يُرَاعِي **رَأْسَ النِّعَمِ وَهُوَ الإِيمَانُ** الَّذِي هُوَ أُسُّ كُلِّ بِرٍّ، وَمَا كَانَ مِنْ تَقَلُّبَاتِ القَلْبِ فِي الأَحْوَالِ الوَارِدَةِ عَلَيْهِ مِنْ بَلَاءٍ وَغَيْرِهِ فَلَا يَتَغَيَّرُ بِهِ، فَإِذَا وَرَدَ البَلَاءُ عَلَى مَا سَبَقَ بِهِ القَضَاءُ وَجَدَ قَلْبَهُ طَيِّبًا وَإِيمَانَهُ تَامًّا، فَصَارَ البَلَاءُ فِي حَقِّهِ نِعْمَةً، فَيَشْكُرُ عَلَى البَلَاءِ الَّذِي وَجَبَ بِنُزُولِهِ تَصْحِيحُ إِيمَانِهِ وَرِضَاهُ عَنْ رَبِّهِ، فَالشَّكُورُ لَيْسَ هُوَ مَعَ العَطَاءِ وَلَا مَعَ البَلَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ نَاظِرٌ لِإِيمَانِهِ هَلْ فِي زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ[1].

(١) محجة القاصدين (ص٢٧٢)

باب الخوفِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا**»(١).

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ العَزِيزِ رضي الله عنه: اعْلَمْ أَنَّ حَقِيقَةَ خَوْفِ اللهِ قَطْعُ خَوْفِ الخَلْقِ مِنَ القَلْبِ، وَمَتَى كَان عِنْدَ العَبْدِ خَوْفٌ مِنْ غَيْرِ اللهِ سَقَطَ مِنْ عيْنِ اللهِ وَسَلَّطَ عَلَيْهِ المَخَافَةَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ(٢).

وَقَالَ رضي الله عنه: كُلُّ خَوْفٍ لَا يَحْجِزُ عَنِ المَعَاصِي فَهُوَ حَدِيثُ نَفْسٍ، وَإِذَا صَحَّ الخَوْفُ مِنَ اللَّهِ لَمْ تَنْوِ مَعْصِيَةً وَلَا تَقَعُ فِيهَا؛ إِذِ الخَوْفُ مِنَ اللهِ مَانِعٌ وَحَاجِزٌ(٣).

وَقَالَ رضي الله عنه: الخَوْفُ عَلَى قِسْمَيْنِ:

- خَوْفُ العَامَّةِ مِنَ الذُّنُوبِ.

- وَخَوْفُ الخَاصَّةِ، وَهُوَ أَنْ لَا يَنْحَجِبَ العَبْدُ بِمَخْلُوقٍ عَنِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣١) ومسلم (٩٠١))

(٢) محجة القاصدين (ص٢٦٠)

(٣) محجة القاصدين (ص٢٥٧)

اللهِ وَلَا يَشْغَلَهُ عَنْهُ(١).

باب الرَّجاءُ

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ٢١٨].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ**»(٢).

وقال ﷺ: «**لَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الجَنَّةِ**»(٣).

وقالَ الشيخُ زَرُّوقٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرَّجَاءُ: هُوَ الطَّمَعُ فِيمَا عِنْدَ اللهِ بِشَرْطِ العَمَلِ فِي سَبَبِ الوُصُولِ إِلَيْهِ(٤).

---

(١) محجة القاصدين (ص٣١٦)

(٢) مسلم (٢٨٧٧)

(٣) البخاري (٦٤٦٩) ومسلم (٢٧٥٥)

(٤) مفتاح الفضائل، (ص٢٩٨)

ولم أقف على كلام خاصٍّ في مقام الرجاء للشيخ عبد العزيز رضي الله عنه، ولم يَذْكُرْهُ إلا عَرَضًا، والسببُ في ذلك والله أعلم أنه كان ممن يغلّبُ الخوفَ على الرجاء والقبض على البَسْط.

باب التوكل

قَالَ عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: **«يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»**[1].

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم: **«لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»**[2].

---

(١) البخاري (٥٧٠٥)

(٢) ابن ماجه (٤١٦٤)

قالَ الشيخُ زَرُّوقٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: التَّوَكُّلُ: هُوَ العِلْمُ المُتَمَكِّنُ مِنَ الصَّدْرِ بِأَنَّ الأُمُورَ كُلَّهَا ـ دَقِيقَهَا وَجَلِيلَهَا ـ بِيَدِهِ تَعَالَى، يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ، وَيَمْنَعُ مَا يُرِيدُ مَنْ يَشَاءُ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا رَادَّ لِأَمْرِهِ(١).

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ العَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: التَّوَكُّلُ: اعْتِقَادُ أَنَّ مَا لَكَ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، يَأْتِيكَ مُقَدَّرًا مَقْسُومًا مُوَقَّتًا، لَا يَأْخُذُهُ غَيْرُكَ، فَيَحْصُلُ بِهَذَا التَّوَكُّلِ الطُّمَأْنِينَةُ وَالثِّقَةُ بِمَا فِي يَدِ اللهِ تَعَالَى، وَأَمَّا حَقُّ التَّوَكُّلِ فَهُوَ الانْقِطَاعُ عَمَّا لَكَ بِالاشْتِغَالِ بِاللَّهِ وَدَوَامِ ذِكْرِهِ(٢).

وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: التَّوَكُّلُ: التَّعَفُّفُ عَنِ المَسْأَلَةِ بِطَلَبِ الحَلَالِ.

ـ **أَمَّا التَّعَفُّفُ عَنِ المَسْأَلَةِ** فِي هَذَا المَقَامِ فَهُوَ أَنْ لَا يَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، كَمَا حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سَقَطَ سَوْطُهُ وَهُوَ

---

(١) الشرح السابع عشر على الحكم (ص٣٨٨) قال الشيخ عبد القادر الفاسي: إن مقام التوكّل لا يقدحُ فيه تلبّس الظاهر بالأسباب، كذلك لا يقدحُ التلبّس في ظاهر الأمر بالتدبير، ثم إنه كما لابد في التلبس بالأسباب من جريها وتفصيلها على القانون الشرعيّ وإلا كانت مذمومة قادحة في التوكّل، كذلك التدبير أيضا لابد أن ينظر فيه هذا النظر ويفصّل فيه بين ما هو مطلوبٌ ممدوحٌ وبين ما هو مرغوب عنه مذمومٌ قادحٌ في التوكل. (تحفة الأكابر، مخ/ص١٨٢)

(٢) محجة القاصدين (ص٣٨٣)

رَاكِبٌ فَنَزَلَ لِيَأْخُذَهُ وَلَمْ يَسْأَلْ مَنْ يُنَاوِلُهُ[١].

ـ **وَأَمَّا طَلَبُ الحَلَالِ** فَهُوَ أَنْ لَا يَرَى فِيمَا أَتَاهُ وَاسِطَةً، بَلْ يَأْخُذُ مِنْ يَدِ اللهِ، وَمَتَى لَاحَظَ وَاسِطَةً خَرَجَ عَنِ الحَلَالِ فِي هَذَا المَقَامِ وَهُوَ مَقَامُ التَّوَكُّلِ، وَقَدْ قِيلَ: الحَلَالُ: هُوَ الَّذِي لَا يُعْصَى اللهُ فِيهِ بِإِضَافَةِ وُجُودِهِ إِلَى غَيْرِهِ. وَقِيلَ: الَّذِي لَا يُنْسَى اللهُ فِيهِ بِذِكْرِ الوَسَائِطِ وَالأَوْهَامِ، وَهَذِهِ مَقَامَاتُ الخَوَاصِّ[٢].

وَقَالَ رضي الله عنه: التَّوَكُّلُ: حُسْنُ الظَّنِّ بِأَنْ يَقْطَعَ الوَهْمَ وَالاشْتِغَالَ بِيَكُونُ أَوْ لَا يَكُونُ؛ لِأَنَّ الوَهْمَ النَّظَرُ إِلَى وَقْتٍ ثَانٍ، وَمَتَى صَغَى

---

(١) عن عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيُّ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟**» وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟**» فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ؟**» قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: «**عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتُطِيعُوا** ـ وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً ـ **وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا**» فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاه. (أخرجه مسلم: ١٠٤٣) وعن ثَوْبان رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَن يَكْفُلُ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، وَأَتَكَفَّلُ له بِالجَنَّةِ؟**» فقال ثوبانُ: أنا، فكان لا يسألُ أحَداً شيئًا. (أبو داود: ١٦٤٣)

(٢) محجة القاصدين (ص٢٩٧)

لِلْوَهْمِ هَلَكَ[١].

بَابُ المَحَبَّةِ

قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنَ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللَّهِ**»[٢].

قال الشيخ زروق ؒ: المَحَبَّةُ: أَخْذُ جَمَالِ المَحْبُوبِ بِحَبَّةِ القَلْبِ، حَتَّى لَا يُمْكِنُهُ الِٱلْتِفَاتُ لِغَيْرِهِ، وَلَا العَمَلُ بِغَيْرِ مَا فِيهِ رِضَاهُ؛ إِيثَارًا لَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ[٣].

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ العَزِيزِ ؓ: المَحَبَّةُ لَا تَصِحُّ إِلَّا بِمُتَابَعَةِ

---

(١) محجة القاصدين (ص٣٠١)

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٨٩) قال الفاكهاني (ت٧٣٤هـ): «ولا إحسانَ في الحقيقةِ إلا لِلَّهِ ﷻ؛ لأنَّهُ خالِقُ المُحْسِنينَ وإحْسَانِهِمْ، فهْوَ الحَقِيقُ بالمَحبَّةِ دون ما سواه. ومِنْ مَحبَّتهِ محبَّةُ مَنْ أحبَّهُ: مِنْ نَبيٍّ، ومَلَكٍ، وَوَلِيٍّ وغَيْر ذلك. ومِنْ محبَّتهِ أيضًا ٱمتثالُ أوامرِه، وٱجتنابُ نواهيه، وٱتّباعُ سُنَّةِ رسول اللَّهِ ﷺ، لَا تَصِحُّ حقيقةُ المحبَّةِ إلا بذلك». (رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام، ج٢/ص٣١٩)

(٣) مفتاح الفضائل

الحَبِيبِ ﷺ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَسُنَّتِهِ، وَهِيَ أَنْ يَقُومَ بِوَاجِبَاتِ الشَّرِيعَةِ وَلا يُخِلَّ بِشَيْءٍ مِنْهَا، وَمَنْ وَصَلَ إِلَى أَعْلَى المَوَاهِبِ وَالحَضَرَاتِ وَنَقَصَ مِنْ فَرَائِضِ الشَّرِيعَةِ ذَرَّةً لَمْ نَعْبَأْ بِعَمَلِهِ وَحَالِهِ، وَضَرَبْنَا عُنُقَهُ(١).

وَقَالَ رضي الله عنه: حُكِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ أَنَّهُ رَأَى مَلَكَيْنِ نَزَلَا مِنَ السَّمَاءِ يَكْتُبَانِ المُحِبِّينَ لِلَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ لَهُمَا: اكْتُبَانِي مِنْهُمْ. فَقَالَا لَهُ: لَسْتَ مِنْهُمْ. فَقَالَ: اكْتُبَانِي مِنْ مُحِبِّي المُحِبِّينَ. فَنَزَلَ مَلَكٌ ثَالِثٌ وَقَالَ: اكْتُبَاهُ مِنَ المُحِبِّينَ.

ثم علَّق الشَّيْخُ بقوله: لَمَّا لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يَدَّعِيهَا، وَلَا مَقَامٌ يَسْتَحِقُّ بِهِ شَيْئًا، رَجَعَ لِلْحَيَاءِ وَالذُّلِّ، وَقَالَ: مِنْ مُحِبِّي المُحِبِّينَ، وَهُوَ طَاهِرٌ مِنْ عِلْمِهِ وَعَمَلِهِ، غَيْرُ مُدَّعٍ لِصَلَاحٍ أَوْ حَسَنَةٍ، وَعَلِمَ الحَقُّ صِدْقَهُ فِي طَهَارَتِهِ وَخُضُوعِهِ وَحَقَارَتِهِ لِنَفْسِهِ، فَأَنْزَلَ المَلَكَ أَنْ يَكْتُبَاهُ مِنَ المُحِبِّينَ إِكْرَامًا لِتَوَاضُعِهِ وَذُلِّهِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى(٢).

---

(١) محجة القاصدين (ص١٨٨)

(٢) محجة القاصدين (ص٣٧٧)

باب الرِّضَا

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا**»(١).

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ العَزِيزِ رضي الله عنه: كُلُّ مَنْ فِي قَلْبِهِ لِلْوُجُودِ خَطَرٌ لَمْ يَشُمَّ رَائِحَةَ الرِّضَا؛ لِأَنَّ الرَّاضِيَ يَسْتَوِي عِنْدَهُ الوُجُودُ وَالعَدَمُ وَالعَطَاءُ وَالمَنْعُ وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ رَاضِيًا، وَعَلَامَةُ الرِّضَا نُزُولُ السَّكِينَةِ فِي القَلْبِ لِأَنَّ السَّكِينَةَ لَا تَنْزِلُ فِي قَلْبٍ يَكُونُ فِيهِ إِيثَارُ الخَلْقِ عَلَى الحَقِّ(٢).

وَقَالَ رضي الله عنه: اعْلَمْ أَنَّ المُؤْمِنَ كُلُّ شَيْءٍ خَيْرٌ لَهُ(٣) لِرِضَاهُ عَنْ رَبِّهِ، فَلَا يُقْضَى لَهُ قَضَاءٌ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِ خَيْرٌ، فَيَتَنَعَّمُ وَيَرْضَى بِمَا وَهَبَهُ اللهُ، وَيَرَى النِّعْمَةَ فِي طَيِّ النِّقْمَةِ، وَيَرَى الصِّحَّةَ فِي عَيْنِ

---

(١) أخرجه مسلم (٥٦)

(٢) محجة القاصدين (ص٢٠٨)

(٣) أخرج مسلم رحمه الله (٢٩٩٩) عن صُهَيْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**».

السُّقْمِ فَيَشْكُرُ فِي الحَالَيْنِ جَمِيعًا، وَإِنْ تَعَطَّلَتْ جَوَارِحُهُ عَنِ العِبَادَاتِ يُكَمِّلُ مَا نَقَصَ فِي ظَاهِرِهِ مَوَاجِيدُ قَلْبِهِ وَشُهُودُهُ لِرَبِّهِ، وَكَانَتْ أَعْمَالُهُ كُلُّهَا مَحْفُوظًا عَلَيْهِ ثَوَابُها، فالأمراض للمؤمنين جناتٌ بهذا الاعتبار[1].



(١) راجع محجة القاصدين (ص٣٨٠)


دار الإمام ابن عرفة
تونس